يقمده البرد فى بيته كما يقعدنا — حتى فى بلاده التى لا أعرف أسخف منها جواً ، ولا أبعد عن الاعتدال ، فهو هناك كعهدنا به هنا

وأهل الشام على خلاف أهل مصر ، فانهم كثيرو الخروج الى الرياض والبساتين ؛ حتى «قهواتهم» أو «مقاهيهم» . كما يريدوننا أن نسميها — قلما تكون إلا فى بستان أو كما يقول ابن الرومى : «فى» ميادين يخترقن بساتيـ ـن تمس الرؤوس بالأهداب[1]

ولا أعرف كما قلت تعليلاً لهذا الاختلاف فى الطباع ؛ وأحسب أن اعتـدال جو بلادنا على العموم يحمل على الرضى بالموجود ولا يغرى بغشيان غيره . ولماذا يشتاق ساكن المدينة الى الريف وليس فى المدينة ما يزهده فيها ويدفعه الى الخروج منها والتماس ما هو أخف محملاً ، وأكفل براحة النفس وسكينة الأعصاب ؟ ومما يساعد على القناعة ويبعث على القعود أن التنوع مفقود ؛ فالذى يترك القاهرة لا يتوقع أن يستفيد متعة يخطئها فيها ؛ والمناظر فى الريف واحدة أو هى متشابهة ، فلا جبال هناك ولا غابات ولا أحراج ، ولا غير ذلك مما يحرك الخيال فيحرك النفس ، ولا اختلاف هناك يجعل للنقلة لذة ترجى . والريف من مصر قريب ، فهو معروف غير مجهول . والصحراء حولها من بعض جهاتها فلا موجب للتخيل ، ولكن الانجليزى شأنه غير شأننا ، فأن جو بلاده دائم التقلب ، وهو مع تقلبه السريع سخيف غير مأمون ؛ وقد يكون هذا مما يدفع الانجليزى الى اشتياق الريف ويغريه بتصور سحره ويبعثه على التماسه ونشدانه حتى ولو تكررت خيبة أمله فيه

وأمم البحر الأبيض شبيهة بنا من حيث المزاج ، وجوها أقرب الى الاعتدال من جو الشمال ؛ ومن هنا فيما أظن مشاكلتها لنا فى هذه الطبيعة ، ولست أرى وجوه الاختلاف تؤثر فى هذا ولا نكران أننا تغيرنا . فكثير بيننا الذين يطلبون الريف أو الصحراء ويؤثرونهما على المدن ، ولكننا نفعل ذلك على سبيل التقليد ومن قبيل المحاكاة وبفضل التثقيف الحديث والاتصال الوثيق بالغرب لا بدافع من الفطرة وحافز من الطبيعة . ومثلنا فى هذا أمم البحر الأبيض فقد ذهبت تقلد أمم الشمال كالانجليز والاسكندناويين والألمان ، وراحت تتكلف حب الطبيعة حتى لصارت تبدو كأن هذا فيها طباع ، وما هو بذاك

ابراهيم عبد القادر المازنى

(١) البيت فى الأصل « من ميادين الخ »

الخليفة العزيز بالله

وزوجه النصرانية وأصهاره البطاركة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ليس غريباً أن نقرأ فى التاريخ الاسلامى أن خليفة من الخلفاء قد ولد من أم نصرانية أو أنه قد تزوج من نصرانية وله بين الأمراء النصارى أصهار ولأولاده منهم أقارب ؛ ولكن ربما يبدو غريباً أن يقترن خليفة مسلم بنصرانية تنتمى إلى أسرة من الأحبار ، وأن يكون له بين أحبار الكنيسة أصهار ، ولولده منهم أقارب وخؤولة : تلك هى حالة العزيز بالله ثانى الخلفاء الفاطميين بمصر ، ولد المعز لدين الله ، ووالد الحاكم بأمر الله

كانت الخلافة الفاطمية منذ قيامها بمصر تتشح بصبغتها المذهبية العميقة ؛ بيد أنها رأت أن تتبع نحو الذميين من النصارى واليهود سياسة التسامح الحر ؛ وظهر أثر هذا التسامح جلياً فى علائق الذميين بالدولة ، وفى ارتفاعهم إلى أرقى مناصبها ؛ بل نرى فى خلافة المعز لدين الله وولده العزيز ثبتاً حافلاً من الوزراء والكتاب النصارى واليهود يحتلون أرفع المناصب فى البلاط وفى الحكومة ؛ وكان أول وزراء الدولة الفاطمية وأعظمهم يهودياً اعتنق الاسلام ، وهو الوزير يعقوب بن كلس ؛ وفى عصر العزيز كان مدبر الدولة وكبير الوزراء نصرانى هو عيسى بن نسطورس ؛ وكان متولى أعمال الشام يهودياً يدعى منشا ؛ وفى عهد المعز والعزيز أنشئت كنائس وأديار كثيرة ؛ وبلغ نفوذ النصارى واليهود ذروته فى عصر العزيز حيث استولى الوزراء والكتاب الذميون على معظم أعمال الدولة ، واستأثروا بمعظم السلطات والنفوذ ، وقد كان لهذه السياسة المتطرفة فى التسامح والعطف أثر سيء فى المجتمع المصرى ؛ وتنقل الرواية إلينا فى ذلك قصة خلاصتها أن العزيز بالله رأى ذات يوم فى طريق الركب الخلافى امرأة تمد بيدها رقعة كأنها ظلامة . فتناولها ، فاذا بالمرأة هيكل من الجريد قد ألبس إزارا ، وإذا فى الرقعة ما يأتى : « بالذى أعز اليهود بمنشا ، والنصارى بعيسى

ابن نسطورس ، وأذل المسلمين بك إلا ما كشفت ظلامتى ... »
فأدرك العزيز ما انتهت إليه نفسية الشعب من تحكم الأقلية الذمية في مناصب الدولة ومرافق الأمة ؛ وسواء صحت هذه الرواية أم كانت فقط أسطورة ذات مغزى ، فان العزيز لم يلبث أن أدرك خطر هذه السياسة على سلطان الخلافة وهيبة إمامتها الذهبية ، فانقلب إلى مطاردة الذميين ، وقبض على الوزراء والكتاب من النصارى واليهود ؛ ولكنه عاد فأفرج عنهم بعد أن اتخذ بعض الضمانات التي تكفل الحد من طغيانهم وإسرافهم في سياسة الاصطفاء

وتجمع الروايات المعاصرة على أن جنوح العزيز إلى هذا الاسراف في التسامح نحو الذميين يرجع من وجوه كثيرة إلى نفوذ زوجه أو سريته النصرانية ، وابنته منها الأميرة ست الملك ؛ وكانت فتاة عاقلة حازمة يحبها والدها العزيز ويستمع إلى نصحها في كثير من الأمور ؛ وأخيراً إلى نفوذ صهريه أخوى زوجه ، وهما حبران كبيران تبوآ في عصر العزيز أرفع المناصب الكنسية

* * *

وهذه القصة : أعني قصة زواج العزيز من سيدة نصرانية ، قصة يمازجها شيء من الغموض والاضطراب ، وتنفرد بتفاصيلها الرواية النصرانية ، ولا تكاد تشير اليها الرواية الاسلامية ؛ وتقول لنا الرواية إن هذه السيدة زوج العزيز أو سريته ، كانت جارية رومية نصرانية من طائفة الملكية ، وكان لها أيام العزيز نفوذ كبير في الدولة ؛ وكان لها أخوان هما ارسانيوس أو (أرسانى) وأريسطيس ، رفعهما العزيز بتدخله ونفوذه إلى ذرى المناصب الكنسية ، فعين أريسطيس بطريركا للملكية ببيت المقدس (سنة ٣٧٥ هـ) وعين أرسانيوس في نفس العام مطراناً للقاهرة ، ثم عين بعد ذلك بطريركا للملكية بالاسكندرية (سنة ٣٩٠ هـ)[1] وكان لهذين الحبرين بلاريب نفوذهما في بلاط يرتبط معها بأواصر المصاهرة ، وفيه أختهما « زوج الخليفة » وابنته منها الأميرة العاقلة المحبوبة ست الملك ؛ وكانت عند وفاة والدها العزيز في نحو السادسة والعشرين من عمرها ؛ وقد حملت رسالته في التسامح بعد ذلك في فرص كثيرة ، ولا سيما بعد مصرع أخيها الحاكم بأمر الله سنة ٤١١ هـ

وتذهب الرواية الكنسية إلى أبعد من ذلك ، فتقول لنا إن هذه السيدة النصرانية هي أم الخليفة الحاكم بأمر الله ولد العزيز ، وتنفرد بهذا القول الرواية القبطية المعاصرة ، وتقول لنا بالنص ما يأتي : «وكان الملك العزيز بالله بن المعزلدين الله قد رزق ولداً من سرية له رومية وجلس في الملك من بعده ، ولقب بالحاكم بأمرالله ؛ وكان للسرية المذكورة التي هي أم الحاكم أخ اسمه أرسانى فجعلته بعنايتها بطرك الملكية...»[1] ولكن الرواية النصرانية تنقل الينا في غير موطن أن هذه السيدة هي أم ست الملك ابنة العزيز دون الاشارة إلى أنها أم الحاكم ؛ فيقول لنا يحيى الأنطاكى مثلاً ، وهو مؤرخ معاصر تقريباً : « وفي شهر رمضان سنة خمس وسبعين وثلثمائة صير اريستس خال السيدة ابنة العزيز بالله بطريركا على بيت المقدس ، أقام عشرين سنة ومات بالقسطنطينية ، وصُير أخوه أرسانيوس أيضاً مطرانا على القاهرة ومصر »[2] . ويقول لنا المكين بن العميد في صراحة ووضوح : « إن العزيز بالله صاحب مصر تزوج امرأة نصرانية ملكية ورزق منها بنتا ؛ وكان للمرأة أخوان أحدهما أسمه أرميس (أريستس) صيره بطركا على بيت المقدس ، والآخر أرسانيس صيره بطركا للملكية على القاهرة ومصر ؛ وكان لها من العزيز جانب لأنهما أخولة ابنته»[3] ، هذا بينما تلزم الرواية الاسلامية الصمت إزاء هذه المسألة كلها ، ولا تشير الى أم الحاكم إلا بأنها « الست العزيزية »[4] . بل نرى المقريزى يشير الى ارسانيوس وولايته لمنصب البطريركية دون الاشارة الى أنه صهر العزيز أو خال ست الملك[5] . ومما يبعث الى التأمل أنه إذا كانت هذه السيدة النصرانية هي أم ست الملك ، فان العزيز يكون قد تزوجها أو تسراها وهو ولي عهد بالمغرب قبل سنة ٣٥٩ هـ — وهو تاريخ مولد ابنته — ففي أي ظروف حصل

(١) راجع المؤلف الكنسى (القبطى) المسمى « بسير البيعة المقدسة » والملحق بكتاب ساويرس بن المقفع (سير الآباء البطاركة) وقد اقتنت دار الكتب أخيراً منه نسخة فتوغرافية كاملة (رقم ٦٤٣٤ ح) وتاريخ الأنطاكى ص ١٦٤ و١٦٥ و١٨٥ ؛ والمكين بن العميد ص ٢٤٧

(١) المخطوط الكنسى المشار اليه
(٢) الانطاكى ص ١٦٤
(٣) ابن العميد ص ٢٤٧
(٤) راجع خطط المقريزى (الطبعة الأهلية) ج ٢ ص ٢٠٧
(٥) الخطط ج ٤ ص ٣٩٨

هذا الزواج أو التسرى ؟ وفى أى ظروف وقعت هذه الجارية الرومية المصرية فى يد البلاط الفاطمى بالمغرب ؟ هذا ما لاتوضحه لنا الرواية ، ومن جهة أخرى فان الرواية الكنسية (القبطية) المعاصرة هى التى تنفرد بالقول بأن هذه السيدة هى أيضا أم الحاكم ، هذا بينما تكرر الرواية النصرانية المعاصرة والمتأخرة أنها هى أم ست الملك فقط ؛ ولو كانت نفس الأم هى أم الحاكم ، وهو الخليفة وشخصيته أهم من شخصية أخته ، لما ترددت الرواية فى ذكر هذه الحقيقة . وقد ولد الحاكم بعد مولد أخته بستة عشر عاما (سنة ٣٧٥ هـ) ولم يرزق العزيز خلال هذه الفترة إلا بابن يدعى محمداً وقد توفى طفلاً[1] ؛ وفى ذلك أيضا ما يبعث الى التأمل

أفلا نستطيع على ضوء هذه الملاحظات أن نرتاب فى هذا القول الذى تنفرد به الرواية الكنسية ، وأن نعتقد أن هذه السيدة النصرانية كانت أما لست الملك فقط ، وان « السيدة العزيزية » التى تشير اليها الرواية الأسلامية بأنها أم الحاكم هى سيدة أخرى ، وأنها هى الزوجة الشرعية ؟ هذا ما نميل الى الأخذ به ، خصوصا إذا ذكرنا موقف ست الملك من النصارى ، وهو موقف عطف دائما وموقف أخيها الحاكم وهو موقف اضطهاد وقسوة لا مثيل لها ، وصمت الرواية الاسلامية فى هذا الموطن لا يمكن أن يحمل على أنه صمت تحفظ وإغضاء ، لأن الرواية الاسلامية تقدم الينا ثبتا حافلا من الخلفاء الذين ولدوا من أمهات من النصارى ، وفى مقدمتهم عبد الرحمن الناصر أعظم خلفاء الأندلس

* * *

وتقدم إلينا الروايه النصرانية بعض تفاصيل عن حياة هذين الحبرين الكبيرين أريسطيس وإرسانيوس صهرى الخليفة العزيز بالله ؛ فتقول لنا إن الطائفة الملكية اشتد ساعدها فى عصر العزيز من جراء هذه المصاهرة الملوكية ، ووضعت يدها على بعض كنائس اليعاقبة ؛ وإن البلاط الفاطمى فى أوائل عهد الحاكم بأمر الله ، وفى عهد مدبر دولته برجوان الصقلبى ، انتدب أريسطيس بطريرك بيت المقدس ليكون سفير الحاكم إلى قيصر قسطنطينية باسيل الثانى فى سنة ٣٩٠ هـ (سنة ١٠٠٠ م) ، ولكى يعمل على

(١) النويرى — نهاية الأرب — النسخة الفوتوغرافية بدار الكتب ج ٢٦ ص ٦١

عقد الهدنة والصداقة بين مصر والدولة البيزنطية بعد أن استطالت الحرب بينهما فى الشأم منذ عهد المعز لدين الله ؛ فسار أريسطيس إلى قسطنطينية مع رسل القيصر ، وقام بالمهمة ، وعقدت بين مصر والدولة البيزنطية معاهدة سلم وصداقة لمدة عشر سنين ، وأقام أريسطيس فى عاصمة بيزنطية أربعة أعوام حتى توفى فى سنة ٣٩٤ هـ [1]

أما ارسانيوس فأنه لبث بطريركا للملكية زهاء عشر سنين ؛ وكان فى أواخر أيامه قد اعتزل الحياة ، فى دير القصير الذى شيد فى بعض ربى المقطم ، وعكف على النسك والتعبد ؛ وفى سنة ٤٠٠ هـ (١٠١٠ م) حينما اشتدت موجة الاضطهاد الدينى التى أثارها الحاكم بقوانينه الصارمة ضد النصارى واليهود ، أمر الحاكم بهدم هذا الدير الشهير ضمن ما أمر بهدمه من البيع والأديار الأخرى ، فهاجته الغوغاء ، وقوضت أبنيته ، ونهبت مقتنياته وآنيته ، وأخرج منه أرسانيوس مع باقى الرهبان الساكنين فيه ؛ وقضى أرسانيوس أشهراً أخرى فى بعض البيع حزيناً على ما أصاب قومه من الخطوب ؛ وفى ذات ليلة من شهر ذى القعدة سنة ٤٠٠ هـ نفذ بعضهم إلى مكانه المتواضع وقتلوه سراً ، واحتوت ابنة أخته ست الملك على ما كان له من المال والثياب والذخائر المقدسة[2] . ولم تحدثنا الرواية عمن قتله أو من أمر بقتله ، بيد أن فى هذا الحادث نفسه ما يبعث إلى الريب فى قراءة الحاكم بأمر الله بالحبر المقتول

تلك هى قصة زوج العزيز أو سريته النصرانية وقصة أخويها الحبرين البطركين ؛ وهى مصاهرة طريفة فريدة فى نوعها ، ولا تذكر لنا الرواية مثلاً آخر يرتبط فيه خليفة مسلم مع بعض خلفاء النصرانية برباط المصاهرة ، وإذا استبعدنا من الرواية ما يتعلق بالحاكم ونسبته لهذه الأم النصرانية ، فانه ليس ثمة ما يحمل على الشك فى جوهرها وتفاصيلها . بيد أن الرواية لا تحدثنا عن اسم هذه السيدة الرومية النصرانية التى سطعت فى قصر من أعظم القصور الاسلامية ، وفى ظل خلافة تطبعها الصبغة الذهبية بأعمق طابع ، ولا تحدثنا عن مصيرها

محمد عبد الله عنان

(١) الانطاكى ص١٨٣ و١٨٤ وابن الأثير ج ٩ ص٤٢ ، والمقريزى ج ٤ ص ٦٨ و ٦٩

(٢) الانطاكى ص ١٩٧ و ٢٣٧